فى الأدب

كيف يكتب التاريخ …

بقلم العلامة المحقق والكاتب الكبير

الدكتور محمد حسين هيـــكل بك

للكاتب الكبير والعالم المحقق الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل بك ؛ فضلا عن غزارة العلم ، وصفاء الذهن ؛ نفحات أخلاقية تنطوى على أسمى آيات النبل وأعلى مراتب الفضيلة ، فى حين يرى المعلمون ، وغير المعلمين أنهم مدينون له بما أفادوا من مؤلفه الجليل « حياة محمد » يرى هو أن فى إقبالهم عليه فضلا ينبغى أن يذكر ؛ فالدكتور هيكل بك . إذ يغمر الشرق العربى كله بهذا النور الوضاء ، وإذ يقيم هذه المنارة الرفيعة لتضىء السبيل إلى تعرف السيرة المحمدية الطاهرة ؛ لا يقتصر على إنكار ذاته . بل يحاول فى هذا المقال أن يعزو الفضل للمدينين له بهذا الفضل ؛ وهذا منتهى النبل وسمو الأخلاق ما ؟ (المحرر)

* * *

لاحظت أن كثيرين من رجال التعليم الإلزامى قد بادروا إلى الإقبال على كتابى « حياة محمد » فأرى حقا لصحيفتهم على أن أنشر فيها كلمة عن التاريخ وكيف يكتب ؛ خصوصا إذا كان هذا التاريخ من الدقة بحيث يتصل بعقائد الناس اتصال حياة النبى العربى بها

وأكرر هنا ما ذكرته فى مقدمة كتابى ، من أن الإنسان يجب عليه فى مثل هذا الموضوع أن يجعل سنده الأول ، الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كتاب الله الكريم ، ففيه إشارة إلى كل حادث من حياة النبى العربى ؛ يتخذها الباحث منارا يهتدى به فى بحثه ، ويمحص على ضيائه ما ورد فى كتب السنة ، وما جاء فى كتب السير المختلفة ، ونحن فى هذا العصر أشد حاجة إلى الرجوع دائما إلى القرآن ، إذا أردنا أن نهتدى إلى الحق فى تاريخ من أوحى القرآن إليه ، وإذا كان صلى الله عليه وسلم حينما كان فى مرضه الأخير قال لرجال كانوا فى البيت معه : هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا ، فقال

بعض الحاضرين : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله . والراجح أن عمر بن الخطاب هو الذى قال هذه المقالة . فنحن اليوم بحاجة إلى تمحيص الكثير مما ورد فى كتب التاريخ الأسلامى عن سيرة النبي عليه السلام ؛ والقرآن هو مرجع هذا التمحيص .

والواقع أن ثمّ فرقا بين مؤرخي عصرنا الحاضر والمؤرخين الأقدمين : وأخص بالذكر منهم الذين جاءوا فى عصور الانحلال حين بدأت الشعوبية تنتاب فى مختلف البلاد الأسلامية ، مؤرخو هذا العصر كانوا يقبلون كل قول ، ويثبتون كل أمر ، ويعتبرون المؤرخ ناقلا ليس غير ؛ ولذلك اندسّت إلى مؤلفاتهم أمور كثيرة لا يسلم بها العقل ؛ ويكفى مقارنتها بما ورد فى القرآن للقطع بعدم صحتها ، ومن هؤلاء المؤرخين كثيرون كانوا يثبتون هذه الروايات عن إيمان وحسن قصد ، ولو أنهم كلفوا أنفسهم ما يكلف المؤرخ فى العصر الحاضر نفسه من مهمة النقد ، حرصا على الوصول إلى الحق لما ارتضوا لأنفسهم التسليم بهذه الأمور ولرأوا أنه فى تسليمهم بها يصدق عليهم ما ورد فى القرآن الكريم عن الكفار والمشركين حين كانوا يقولون : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وحين كان يعيّرهم ويسألهم : ألم يكن لهم قلوب يعقلون بها ، وعقول يفقهون بها ؟ . على أن لهؤلاء المؤرخين من العذر عن قبول ما لا يقبل العقل من هذه المسائل ، أن باب الاجتهاد كان قد أغلق ، وأن كل مجتهد ناقد يرمى بالزندقة والمروق

أما المؤرخون الأولون ، وأما المؤرخون فى عصرنا الحاضر ، فيرون المؤرخ ناقداً لما ينقل ، قاصداً إلى تحرى الحق والصدق فى بيان الوقائع التى يتعرض لها ، فاذا صح أن تواترت رواية على أمر لا يحيل العقل تصديقه ، فله كل الحق فى أن يقبل أو يرفض صحة هذا الأمر ما لم يرد به وحى فى القرآن ، وقد نزل القرآن فى أمور كثيرة يسلم بها العقل ، ونزل فيها هداية للناس ، وتبيانا لهم أن سنة الله لن تجد لها تحويلا . كما أن القرآن نزل بمعجزات من سبق محمدا صلى الله عليه وسلم من الرسل ، حتى يؤمن المسلمون بها .

فلا بد من الرجوع إذن إلى القرآن الكريم من غير تعسف فى تأويله أو تفسيره . ومن غير محاولة تحميل آياته الكريمة معانى بعيدة الاحتمال ، ثم التسليم بعد ذلك بالسنة الصحيحة المتفقة مع القرآن ، واعتبارها المرجع الثانى لكتابة السيرة ، وتمحيص ما ورد بعد ذلك على لسان المؤرخين ، وكتاب السيرة على ضياء هذين السندين القويمين ، وبذلك يستطيع الانسان أن يصل إلى الحق فى تصوير حياة هى أسمى حياة عرف التاريخ ، حياة النبي العربى محمد صلى الله عليه وسلم ؟

محمد حسين هيكل

القتل أنفى للقتل

قال قوم إنها حكمة عربية جاهلية ...

وقال آخرون إنها فارسية ...

وأنا أقول إنها مصرية قبل أن تكون عربية أو فارسية

بقلم الصحفى الكبير والكاتب القدير

الأستاذ عبد القادر حمزة

يعرف المشتغلون بالأدب العربى كلمة « القتل أنفى للقتل » ويعرفون أن بعض الباحثين يجعلونها من أقوى الحكم البليغة التى خلفتها عصور الجاهلية العربية ، وأنهم كذلك يعقدون موازنة بينها وبين قول القرآن الكريم «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب» فيجدون فى كلمة القرآن هذه من أنواع البلاغة والحكمة والدقة فى التعبير ما لا يجدونه فى الأولى

وقد عرض جماعة من الكتاب فى العام الماضى للكلمة المعزوة إلى الجاهلية فقالوا فى « البلاغ » إنها فارسية الأصل وإن نسبتها إلى العرب منتحلة . وقدموا على ذلك أدلة . ولست أخوض فى هذا البحث ولكنى أتجه به إلى ناحية أخرى ، فأقول إن الكلمة ليست عربية ولا فارسية ، وإنما هى مصرية وجدت فى مصر قبل أن توجد فى فارس أو فى شبه جزيرة العرب ، ولا يبعد حينئذ أن تكون قد نقلت إليهما منها

ولتلك الكلمة ، أسطورة دينية فأنا أسردها جانبا من هذه الأسطورة لأضع الكلمة فى موضعها منها .

* * *

قالت الأسطورة إنه لما كان الإله « رع » يحكم الآلهة والناس ، لم يكن حكمه هنيا خاليا من المتاعب ، بل كان على العكس من ذلك مشحونا بكثير من الآلام . فالثعبان « أبو قيس » اختفى فى السحب منتظرا أن تمر به سفينة الشمس — والشمس هى الآلة «رع» — ليبتلعها ولكن «رع» بدد السحب بقدرته وكشف عدوه ثم حاربه وحاربه معه الآلهة الآخرون حتى انتصروا عليه . وتلت ذلك سلسلة طويلة من الحروب .

والآلهة (إيزيس) حدثتها نفسها بأن تسيطر على قوة « رع » وكانت قد علمت أن أمه وأباه وضعا كل قوته فى اسمه الحقيقى وخبآه فى قلبه ، فصنعت بيدها ثعبانا وألقت به فى طريقه فلدغه ، فلما سرى سم اللدغة فيه اضطرب وشكا من الألم ، فجاءه الآلهة وقالت له « إيزيس » إنها مستطيعة أن تشفيه بسحرها وحكمتها ، ولكن على شرط أن يبوح لها باسمه الحقيقى المخبأ

فى قلبه ، فتمنع وحاول أن يصرفها عن غرضها فلم تقبل . ثم ازداد به ألم السم فرضى وباح لها باسمه

وبعد هذه الثورات عليه من جانب الآلهة فى السموات جاءت ثورة الناس عليه فى الأرض وذلك أن الهرم دب إليه فضعفت يده عن زمام الحكم . وشعر الناس بهذا الضعف فجعلوا يتحدثون بالثورة عليه ، فسمع أحاديثهم ، فجمع مجلسا من الآلهة شو « الهواء » وتفنيت « القضاء » وجيب « الأرض » وتوت « السماء » ونون « أصل الكون » واستشارهم فيما يفعله فى الناس ، فأشاروا بأن يسلط عليهم الالهة « هاتور » تهلكهم جزاء كفرهم بنعمته. فمضت « هاتور » تقتل وتشرب دماء القتلى . ثم أشفق « رع » أن تفنيهم فصنع « لهاتور » شرابا من عصير الرمان ممزوجا بالجعة ملأ به سبعة آلاف خابية ؛ ثم صبه على الأرض فى طريق « هاتور » فظنته بعض الدماء التى تشربها من قتلاها ، فشربته فثملت ونسيت أن تواصل القتل . وبنسيانها هذا سلمت طائفة قليلة من الناس فبقيت على وجه الأرض .

وجاءت هذه الطائفة إلى (رع) تسترحم وتستغفر فغفر وقال لها :

خطاياكم مغفورة لكم . إن القتل ينفى القتل . ومن هنا تكون القرابين أو الضحايا .

وعند هذا الحد من الأسطورة نقف . ونحب أن نذكر هنا قبل كل شىء النص الفرنسى لتلك الكلمات كما وضعه أول مترجم لها عن اللغة المصرية وهو الأستاذ (إيدمون نافيل) وقد أقره عليه الأستاذ « ماسبيرو » والأستاذ « مورى » وغيرهم من العلماء الذين اشتغلوا بترجمة النصوص المصرية . والنص بالفرنسية هو :

« Vos péchés vous sont remis ; le meurtre écarte le meurtre ; de là viennent les sacrifices ».

وفى ترجمة أخرى توضع كلمة « combat » بدل كلمة « écarte » وحينئذ تكون الترجمة « القتل يكافح القتل »

* * *

فأنت ترى أن كلمة « القتل أنفى للقتل » التى تعزى عند بعض الباحثين إلى العرب فى عصر الجاهلية ، وعند البعض الآخر إلى حكماء فارس ، كانت معروفة فى مصر بما يشبه أن يكون نصها نفسه ، وكانت تعزى فى الأسطورة المصرية إلى « رع » حينما خاطب الذين جاؤوه يستغفرونه . وهذه الأسطورة من أقدم الأساطير فى تاريخ مصر ؛ لأن نصوصها وجدت منقوشة على إهرامات سقارة . ومعروف أن هذه الأهرامات من مخلفات الدولة القديمة أى أنها ترجع إلى نحو خمسة آلاف سنة . ووجود الأسطورة منقوشة عليها دليل على أنها كانت موجودة قبل بنائها . ومن هذا يتضح أن كلمة « القتل ينفى القتل » التى وجدت فى الأسطورة المصرية أقدم من كلمة (القتل أنفى للقتل) التى وجدت فى شبه جزيرة العرب أو فى بلاد فارس بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة على الأقل .

وننظر بعد ذلك فى المعنى الذى أريد منها فى الأسطورة المصرية ، والمعنى الذى أريد منها بعد ذلك عند العرب وفارس ، ويراد اليوم منها

فالعلماء كلهم مجمعون على أن المعنى المراد من كلمة الأسطورة المصرية أن قتل بعض الناس ينفى قتل بعض آخر . يدل على هذا ويؤيده قول «رع» بعد ذلك : « ومن هنا تكون القرابين »

فقد أراد «رع» أن يقول للذين جاءوا يستغفرونه أن قتل الذين قتلتهم « هاتور » من الناس يعفى من القتل ؛ أو ينفى قتل الباقين منهم

فقتل بعض الناس هو إذن قربان لبعض آخر . ومن هنا وجدت فكرة القرابين ؛ ومن هنا أيضا وجد لأول مرة فكرة « الفداء أو الخلاص » فى العقائد الدينية . ويرى الأستاذ (نافيل) أن هذه الفكرة هى بعينها التى قامت بها بعد ذلك العقيدة المسيحية إذ لقبت المسيح عليه السلام بلقب « الفادى أو الخالص »

أما المعنى الذى أريد من كلمة « القتل أنفى للقتل » عند العرب وفارس ؛ والذى يراد منها الآن ، فهو أن قتل المذنبين ينفى أو يمنع قتل غيرهم من الناس ؛ وهذا هو قول القرآن الكريم « ولكم فى القصاص حياة » . وقد يقال بعد ذلك أن المعنى فى الأسطورة المصرية يختلف عن هذا المعنى بعض الشىء لأنه فى الأسطورة لا يشير إلى مذنبين يقتلون فيكون قتلهم حياة لغيرهم من الناس ، بل يشير إلى فكرة تضحية لتخليص بعض آخر من غير قيد فى التضحية ولا قيد فى التخليص ؛ غير أن قليلا من إمعان النظر يدل على أن هذا الفارق سطحى وليس عميقا :

على أن بعض علماء الآثار المصرية ومنهم نافيل وماسبيرو وموري حينما يكتبون كلمة الأسطورة المصرية يكتبونها كما يأتى :

« خطاياكم مغفورة لكم . إن القتل (للمذنبين) ينفى القتل (عن غيرهم من الناس) . الخ » فهم يضيفون من عندهم (المذنبين) و (عن غيرهم من الناس) ويضعونها بين أقواس كما وضعناها هنا كأنهم يريدون أن يقولوا بذلك إن هذا هو المعنى التكميلى الذى يفهمونه من النص المصرى ؛ فإذا صح هذا كان التطابق تاما بين معنى الكلمة فى الأسطورة المصرية ومعناها عند العرب وفارس ومعناها فى الوقت الحاضر .

والمهم على كل حال هو أن الكلمة حكمة مصرية قبل أن تكون حكمة عربية أو حكمة فارسية .

عبد القادر حمزة

المعلم ومهمته القومية

بقلم الصحفي الكبير والكاتب البليغ
الأستاذ محمود عزمي

يطمح المصلحون الاجتماعيون والقادة القوميون إلى أن يؤلفوا من جماعاتهم وأممهم كتلا متناسقة عناصرها ، متفاهمة وحداتها ، متقاربة مدارك أفكارها ، كي يسهل توجيهها والدفع بها في ميادين الانتاج الصحيح السريع .

وقد كانت مهمة التكييف على هذا النحو فيما مضى من قرون ، مهمة شاقة في كل البلاد على السواء . ذلك بأن التعليم لم يكن منتشراً بين سواد الناس انتشاره هذه الأيام ، وذلك بأنه لم توحد الصبغة في الطبقة التي كانت تمتاز بانتشاره بينها وحدها . فقد كان التعليم معهوداً به لرجال الدين ، وكان معهوداً به للحكومات ولبعض الأفراد في بعض الأحايين ، ولم تكن اتجاهات رجال الدين — بل رجال الأديان في بعض الأمم — متفقة مع اتجاهات الحكومات ولا متسقة مع آراء الأفراد الذين كانوا يحترفون التعليم لغرض الاصلاح عند بعضهم ، وقصد الكسب عند بعضهم الآخر . بل أن الحكومات ذاتها لم تكن من الاستقرار بحيث تضمن استمرار البرنامج الواحد ودوام الطريقة الوحيدة .

ويكفي كي نتبين تلك الحال ونقربها إلى الأذهان ، أن نذكر ما كان عليه التعليم في مصر منذ عشرين سنة ، وما هو عليه الآن في القاهرة والاسكندرية وما إليهما من مدن كبيرة .

أليست مدارس الحكومة قائمة إلى جانب المعاهد الدينية الاسلامية والمسيحية المصرية ، وقائمة كذلك إلى جانب مدارس البعثات المسيحية الأجنبية ، ثم إلى جانب مدارس البعثات (العلمانية) وإلى جانب المدارس الأجنبية المتعددة المناحي والأغراض ؟

أما الآن — فأن الأمم كلها تتطلع إلى الانسجام ، وترمي إلى توحيد الثقافة والتهذيب ، وتعتمد في سبيل هذا التوحيد — وذلك الانسجام على « التعليم الالزامي » الذي يعتبر قالبا تصب فيه عقول الأطفال وأخلاقهم ، فيتكيفون بما تريده لهم الدولة تحت إشراف الهيئات التي تمثل الأمة فيها تمثيلا صحيحا .

وإذا كان هذا هو المنظار الذي ينظر خلاله إلى التعليم الأولي من حيث علاقته بالكيان القومي والوحدة القومية ، فأنه من الهين أن يتصور المرء حقيقة العبء الملقى على عاتق « المعلم »

وحقيقة المهمة القومية التى يضعها الوطن فى عنقه ، ومن الخير أن يعرف المرء أنه عبء وأنها مهمة يمتاز المكيان القوى بسبب أى سبب ، ويضعان (المعلم) فى مصاف الدعامات التى يستند إليها رقى الأمم .

* * *

ويقيننا أن (معلمينا) المصريين مدركون تلك المنزلة التى تترنم إياها الأدراك كله ، وأنهم قائمون بمهمتهم الكبرى عن طيب خاطر ، وبلذة وجلد جديرة بأصحاب الرسالات الحقة مهما شاء الاصطلاح العرفى أن يضعهم فى غير مكانهم الصحيح .

ولعلهم يذكرون ، إذ يفخرون بنصيبهم من التكوين القومى ، تلك الكلمة المأثورة التى قالها كثير من رجال السياسة والتربية حين عرض لحرب السبعين التى قامت بين ألمانيا وفرنسا ، وانتصرت فيها الأولى على الثانية فى موقعة (سودان) الفاصلة ، فقرر أن هذه المعركة لم يكسبها القواد الحربيون فى مناطق القتال بل كسبها (معلمو) المدارس الأولية فى ألمانيا بما بثوه فى نفوس النشء من مبادىء وطنية سامية .

محمود عزمى

الحظ

يدأب كل إنسان فى الحياة منذ نشأته فى اجتناء الحسنات ودرء السيئات مؤتما فى ذلك بما يتراءى له فى معترك الحياة ، لا يفتأ جائلا فى ميدانها تتقاذفه أمواجها وتتلاعب به أمواجها وتتشعب تلقاءه سبلها إلى أن تؤوب روحه إلى مثلها ، هذا دأب بنى آدم من قديم الزمان . كل سبيل يسلكه المرء للسعادة محفوف بطوارىء الزمان ملآن بعثرات المصاعب وليس إلا عقله الذى يستضىء به أو بعض أفراد يثق بهم فإن استناروا بلبهم وأحسنوا اختيار الطرقات التى توصلهم إلى إدراك ماسعوا اليه وتبعدهم عن الخطل والزلل وركبوا مطايا الأعمال متوكئين على عصا الثبات والاتئاد فكان حقيق بأولئك الظفر بأسمى المطالب وأما الذين يسلكون غير هذا الطريق ظانين أنهم برآء من الخطأ أو معتمدين على من يساعدهم لاينالون ما يطلبون فيرجعوا بخفى حنين ، ومن الناس من تبين له الرشد من الغى لكنه سار متكاسلا فسبقه إليه آخر مجدا فيظفر به فيرجع المتكاسل ويبرىء نفسه من وصمة التقصير ويسميها سوء الحظ وهو فى الحقيقة التقصير فإن ما يحل بالانسان يرجع إلى عمله لا إلى سوء حظه

تعليم الصغار

بقلم الكاتب القدير

الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أشق التعليم تعليم الصغار ، وكلما كان الطفل أصغر كانت المسألة أعوص ، وقد كنت استغرب فى حداثتى أن أقرأ فى بعض الكتب العربية ما يدل على أن قولهم « معلم صبيان » يكاد يكون مرادفاً لقولهم مجنون أو مخبول أو ملتاث العقل ، ولكنى جربت الأمر — أياما فقط — فلم أعد أستغرب . فان تعليم الكبار الذين أوشكوا أن يدخلوا مداخل الرجال ، لا عسر فيه ولا عناء ، وما على المعلم إلا أن يلقى درسه ، إلقاءاً فيه القدر الكافى من التيسير والتقريب ، ولكن تعليم الصغار المبتدئين شىء آخر مختلف جداً ، وحسبك منه أنه يتقاضى المدرس أن يفطن إلى حدود تجاوزها هو من سنين وسنين حتى نسى أنها كانت قائمة أو أنه كان لها وجود ، وأن ينزل إلى مستوى من الادراك ارتفع عنه وحلق فوقه ، وأن ينظر إلى الدنيا والأشياء نظرة الطفل الذى يُلقى كل ما حوله جديداً . لا نظرة الرجل الذى صار كل شىء عنده مألوفاً ، والطفل استعداد كامن ، وهو خلق لا يزال فى دور التكوين ، والرجل قد استوفى حظه من ذلك ، وعرف حدود نفسه وتبين قدرتها بالقياس إلى غاياتها ، وقاس مسافات الأمل وقدر أبعاد المساعى ، وتحسس مكامن القوة عنده وجسها وامتحنها وألم بما تنطوى عليه . فهما خلقان متباينان متفاوتان يلتقيان ويتواجهان ، وعلى أحدهما — الكبير منهما — أن ينظر فى نفس الآخر ويفتح جوانبها ويختبرها ويعدها بأسباب القوة ووسائل النمو ، ويوجهها وجهتها التى هى أصلح لها .

من أجل ذلك لا يكفى أن يكون المرء واسع العلم عظيم الاحاطة ، ولعل كثرة العلم من أسباب الخيبة فى هذا الضرب من التعليم فقد تفنى الساقية حيث يُغرق البحر ، وألزم من العلم أن يكون حظ المرء جزيلا من الحلم والأناة وسعة الحيلة وحسن التدبير ، ونفاذ البصيرة وصدق الفراسة والحكمة ولطافة الحس ودقة التمييز ، فما فى العلم خير بغير ذلك ، ومن أجل هذا كان التوفيق فى تعليم الصغار عسير المنال ، والفشل أقرب منه ، ولست أعرف أحق بالتقدير وأولى باستيجاب التعظيم من معلم صغار موفق ، فقد بلوت صعوبة ذلك بالتجربة ، وعرفت كيف يتيسر الاخفاق السريع ويتعذر النجاح .

كان الله فى عون معلم الصغار ، وما أحقه بأن يعذر إذا خف عقله !

إبراهيم عبد القادر المازنى

الشعر العربي القديم

نوعه ...

للأستاذ الفاضل أحمد الشايب المدرس بالجامعة المصرية

المشهور بين النقاد والمؤرخين أن الشعر أقسام ثلاثة : قصص ، وغناء ، وتمثيل ، وقد بنوا هذا التقسيم على أصل مقبول وإن لم يكن دقيقا هذه الدقة العلمية التي تجعل كل قسم يناقض الآخر ويوازيه فلا يلتقيان . فالقصص موضوعي ، والغناء ذاتي ، والتمثيل يجمع بين الميزتين إذ كان موضوعيا في شكل ذاتي . وقد ميزوا كل نوع منها بخواص تشرح هذا الأصل ، فالقصصي يستمد موضوعه من هذه الحياة البادية وحوادثها التاريخية والخرافية ، ومن بطولتها النادرة لادخل للشاعر فيه إلا بهذه الصياغة اللفظية في الغالب . لذلك تتوارى فيه شخصيته بقدر ما تبدو شخصية أمته في جيل من أجيال التاريخ الغابر ؛ وربما كانت الملحمة من إنشاء جماعة متوالية من الشعراء ، لم ينفرد بها شاعر فذ ؛ ومن ذلك يقولون : إن القصص شعر أمة وجيل ، لا شعر شخص معروف . والشعر القصصي يزدهر في طور البداوة تعكف عليه الجماعات ليلهب مشاعرها ، ويلائم عزتها القومية ، ويشبع حماستها الساذجة ويكون بعد سجلا للماضي ، ومتعة للحاضر والمستقبل . كان ذلك لدى اليونان فوجدت إلياذة هومير ، وكان عند الفرس فكانت شاهنامة الفردوسي ، وكان عند كثير من الأمم القديمة فعدته مفخرة الأجيال ومصدر الكثير من القصص التمثيلية الحديثة وسواها .

وأما الغناء فإنه في الأصل مظهر لشخصية الشاعر ، وصورة لفكره وشعوره ، يتغنى بها آماله وآلامه ، ويردد فيه ما بعثت الحياة في نفسه من حزن وسرور ، وبهجة وحماسة ، فنسمعه رثاء حزينا ، ووصفا رائعا ، وهجاء لاذعا ، ومداحا رائقا ، وغزلا رشيقا إلى غير ذلك مما فاضت به دواوين الشعر العربي ، وهذا النوع أشهر الأنواع وألزمها لكل زمان ومكان ، وإن كان يزدهر في الطور الأول للحياة الحضرية كما يبدو القصصي وكأنه طابع الحياة البدوية ، وتعليل هذا الفرق واضح ، فالحياة البادية تقوم على الجماعات تؤلف بينها عصبية ، تحميها كلها وتدفع عن أفرادها الغوائل ، والفرد بينها جزء من هذا الكل تفنى فيه ذاتيته إلى حد كبير ، ويكون هو جزءا يتم حياة شعبه . ويكون شعره شعر الجماعة ، ولسانها الناطق ، وصحيفتها السائرة .

وحين تخطو الشعوب إلى دور الحضارة ، وتقوم الحكومات المنظمة بحماية الجماهير ، تجد

الفرد ينعكف على نفسه ويغنى بها ، ومنها يستمد شعره الغنائى وفيه تبدو شخصيته كما سبق .

وحين تتقدم الحضارة ويندمج الشعراء فى الشعوب ، ويشعرون بأن عليهم واجباً اجتماعياً لهذه الأمم التى يحيون فيها تجدهم يعودون لخدمة الجماعة ، ولكن لا على أن يمحضوا فيها ويفنوا شخصيتهم أثناءها ؛ كلا ، وإنما على أنهم زعماء وقادة ، يؤثرون فى الأمة ويضطلعون بأصلاحها فى شتى نواحيها ، ويتخذون المسرح منبراً لدعايتهم ، فيؤلفون له الروايات التمثيلية ؛ أو الشعر التمثيلى ، وهذا النوع يتخذ موضوعه من التاريخ الماضى أو الحاضر ويرمى إلى التثقيف والتهذيب ، ويرسم للأمة مثلا صالحة بعدما يعرض عليها مآخذها الاجتماعية . نسمع ونرى على المسرح أشخاصاً يتحركون ، ويتحاورون فى أضواء خاصة ، ومع موسيقى متنوعة ، وشعرهم غنائى يمثل شخصيات مختلفة ، ولكن مؤلفه كله شخص واحد اشتق موضوعه ونواحيه من الحياة الواقعية أو الخيالية ، وعلى الممثل أن يتفهم غرض المؤلف ليستطيع تمثيل دوره أو الشخصية التى يلبسها . ففى هذا النوع تجد وطرين مختلفين وحدة المؤلف ، وتنوع الشخصيات التمثيلية التى صورها ، لذلك كان فى حاجة شديدة إلى تجارب واسعة ، وقدرة على تمثيل طبقات مختلفة ونفوس متناقضة ، ولهجات شتى ، وشعوب عدة ، وكان لذلك أصعب الأنواع ولا سيما إذا لاحظنا ما يصاحب التمثيل من موسيقى ، ومشاهد متنوعة ، ونستطيع بذلك أن نعرف كيف أن الشعر التمثيلى موضوعى فى شكل ذاتى .

* * *

وهنا نعرض هذا السؤال : أين يقف الشعر العربى القديم من هذه الأنواع ؟

كل ما أثر من هذا الشعر لم تر فيه قصصا بذلك المعنى السابق ، ولا تمثيلا ، وإنما يدخل فى فنون الرثاء ؛ والحكمة والوصف والمديح ، والهجاء والغزل ، والحماسة ، والفخر ونحوها مما قد ذكره الأقدمون واختلفوا حوله تفصيلا وإجمالا ، ولكنه لا يتجاوز الغناء الذى هو فى الأغلب صورة لشعور الفرد ومشتق من ناحيته الخاصة لا يكاد يعدوها ، فهذه الطبقات المتوالية من عهد امرىء القيس إلى البارودى وصبرى وحافظ لم تخلف لنا غير الشعر الغنائى وهذه مسألة استقرائية لادخل للرواة أو النقاد فى إيجاد نوع أو إعدامه ، وكل ما فى المسألة أن هذا النوع من الشعر هو كل ما أثر من الشعر العربى القديم .

ولكن المسألة هى : ألم يوجد لدى الجاهليين قصص ؟

قد يفرض بعض الباحثين أن كان لدى الجاهليين هذا الشعر القصصى شأن الأمم القديمة ، وأن للعرب (إلياذتهم) ، ولكنها فقدت فى ثنايا الأحقاب الجاهلية ، ولم تستطع الرواية إثباتها فضاعت كما ضاع أكثر الشعر القديم .

ويظهر أن هذا الفرض مدفوع ، فقد ورد عن الجاهليين كثير من الشعر ، والخبر مهما يكن مجالا للشك والتجريح ؛ فهو دلالة صريحة على حرص الرواة أن يثبتوا للأقدمين كل ما نسب إليهم حقا يقينا ، أو وهما باطلا ، ليدلوا على مجد تليد ، وقدمة نابهة ممتازة ، أفلم يكن الشعر القصصى أولى بهذا الحرص ؟ وهو كثير يصح أن تبقى له بقية كافية من جهة ، ثم لا يضيره كثيرا أن يدخله الانتحال والتكثير من جهة أخرى ، لأن طبيعة القصص لا ترفض ذلك بل تقبله بسعة ما دام ملائما لهذا الماضى متمشيا مع بطولته الغابرة .

نعم لا نطمئن إلى هذا الفرض ، فليس فى جو التاريخ الجاهلى بارقة ترجة ، وإن كنا لا نرفض أن كان للأعراب نوع من الأقاصيص والنوادر هو عمدة الأسمار وأذاكيه النوادى ولكنه ليس شعرا قصصياً على كل حال .

وإذاً فلنعد إلى المسألة من جديد ، ولنفرض — أو لنعتقد — أن الأدب العربى خلو من الشعر القصصى ؛ ولنسأل أنفسنا عن علة ذلك .

أذكر أنه منذ سنين ثلاث عقدت (كلية الآداب) امتحان الدكتوراه لأحد المدرسين وقد عقدت المناقشة لهذه النقطة ، ولم يزد الحوار بين الأعضاء جميعا على ترديد ما كتبه المستشرقون — أمثال هيوار ، وربنان ، ونيكلسن — من أن هذا النوع من القصص المعروف عن اليونان والهند والفرس لم يخطر ببال العرب أو الجنس السامى ، ولعل السبب فى ذلك قصور فى الناحية العقلية لهذا الجنس .

فماذا عسى أن يكون السبب فى حرمان العرب هذا الشعر القصصى ؟

* * *

لست أزعم أنى سأفتح فتحا جديدا ، أو أصل إلى ما عجز عنه الأولون ، ولكنى سآخذ من طبيعة هذا الفن نفسه ، ومن طبيعة الحياة العربية نفسها ما أفرض به فروضا لأطمع منها إلا أن تثير البحث فى هذا الموضوع .

ظاهر من طبيعة الشعر القصصى أنه يقوم على عنصرين أساسيين مادته أو موضوعه ؛ وهو الحوادث التاريخية والخرافية ، ثم الشاعر البارع ذو النظرة الواسعة الذى يستطيع نظم هذه الحوادث القومية فى ملحمة تكون سجلا خالداً ، وسببا للسمر والأمتاع ، وقد يضاف إلى هذين العنصرين سبب ثالث هو هذا الشعب المتعطش إلى هذا الغذاء النفسى ، والذى له من فراغه وشعوره بالعزة والمجد القومى ما يسمح بنضج هذا الفن بين رحابه .

أما أن مادة القصص قد وجدت فى الجاهلية فلا مجال للشك فى ذلك ؛ هذه حروب العرب فيما بينهم وبين الفرس والروم والأحباش ، ثم حروبهم الداخلية التى جعلت حياتهم سلسلة

وقائع وأيام ، وهذه أساطيرهم العادية الذاهبة إلى أبعد أغوار الماضى ، وهؤلاء أبطالهم من الانس والجن ، وهذه تقاليدهم ومذاهبهم الخيالية والوهمية : كلها مادة خصبة كافية تمكن (لهوميرهم) — إن وجد — أن ينظم (إلياذة) عربية خطيرة ؛ وآية ذلك أن هذه المادة نفسها قد أوجدت القصص فيما بعد ، ولكنه القصص الاسلامى ؛ ولكنه القصص النثرى فى أغلب الأحوال .

وإذا كانت مادة الشعر القصصى قد توافرت لهذا الشعب الجاهلى ؛ فلابد أن تكون هناك أسباب أخرى — لا تتعلق بالناحية الموضوعية — قد أفقدت العرب هذه الميزة الفنية ، فلنبحث عنها فى ناحية الشاعر العربى ، والشعر العربى وخواصه ؛ وفى الشعب العربى وحياته الاجتماعية .

(١) وأول ما يبدو لى قصور يتصل بالشاعر نفسه ؛ فمن الواضح أن الشاعر العربى كان يحيا فى أفق ضيق لا يتجاوز حدود قبيلته ، وكل نزعته العصبية كانت تقف عند هذا الحد ، فلم يفهم القومية العربية العامة التى تشمل أمته كلها ، وتنشىء فيه شعوراً بجنس عربى له تاريخه العام الذى يستأهل الفخر والتدوين ، ومن هنا كان شاعر قبيلة لا شاعر أمة ؛ وكانت نظرته لذلك ضيقة المجال ، فاذا هجا فأل قبيلته ، وإذا فخر فبأعمالها ، وربما كان المجد هو مجدها دون سواها ؛ فكيف نرجو من مثل هذا الشاعر أن ينتظم بنظرته تاريخ أمة عتيدة عريضة ، ويشعر نفسه بعزة لا يعرف إلا شطراً ضئيلاً منها ؛ ويرى ما سواه عبثاً باطلاً ، بل تحدياً لعزته وعزة قبيلته ؟ ! ومن هنا عجز الشعر العربى عن درجة الملاحم القومية وانصرف الشاعر عن تسجيل قوميته وإن لم ينصرف عن تسجيل قبيلته ، نعم سجل الشعراء — فى حدود نظرتهم الضيقة — مفاخر القبائل ، وكانت معلقة عمرو بن كلثوم «قرآن» (تغلب) كما كانت معلقة الحارث ملحمة «بكر» . وعلى من تقع تبعة هذا القصور ؟ أعلى الشاعر لأنه لم يتسام إلى درجة الزعامة الشاملة ، أم على هذه الحياة الاجتماعية التى فرقت العرب قبائل ؛ وحكمت على الشعراء أن يحيوا فى آفاق ضيقة الجوانب ، قريبة المدى ؟

ربما كانت التبعة موزعة بينهما ، وإن كانت الحياة الاجتماعية ذات النصيب الأوفر من ذلك .

(٢) وسبب آخر يتصل بالشاعر أيضاً لا من ناحية نظرته ومحيط تفكيره وعصبيته ؛ بل من ناحية مواهبه النفسية الداخلية أى من حيث عقله وخياله ، فمن المسلم به أن القصص يعوزه ربط الحوادث وتسلسلها ، ثم عمل الخيال المبتكر ؛ فوق ما أسلفنا من سعة النظرة والشعور بالعزة القومية يفخر بها الشاعر أو ينأى عنها ؛ ولكن الآثار الجاهلية — أو كثرتها — أثبتت للعربى الذكاء أولا أى عمق الفهم ؛ لاسعة نواحيه واستيعابه : ثم هذا

الخيال البياني الذي لا يتجاوز الفنون البلاغية من تشبيه ومجاز وكناية ؛ وهذه كلها تنتج نوعا من الأدب مقتضبا هو جل مرصوصة إن كان نثرا ، وهو أبيات مستقلة إن كان شعراً . وأما وحدة الموضوع التي تربط الأفكار سلاسل طويلة وملاحم عادة ، فلم نظفر بما يجعلها من خواص الشعب العربي القديم . وليس من شك عندي أن هذا السبب أيضاً لا يقف عند الشاعر وحده ، وإنما يشترك فيه هذا الجنس كله ، فلنترك الشاعر إلى سائر الجنس العربي .

(٣) والشعب العربي وحياته الاجتماعية سبب آخر لفقدان هذه الموهبة في العصر القديم ، فأن القصص مهما يكن أدب البداوة وغذاء الشعوب في حياتها الأولى ، إلا أنه يحتاج حتما إلى نوع من الاستقرار ، والهدوء النفسي ؛ والاطمئنان إلى مواطن دائمة نوعا ما ، فأن ذلك يسمح للشاعر أن يفرغ لعمله الفني الأنشائي أو الالقائي ؛ كما يسمح للجمهور أن يأتلف ويستمع إليه أو يأخذ عنه راويا أو حافظاً ، ويسمح للحوادث ذاتها أن تبقى وتحفظ فلا تذهب بها مشاغل الحياة وأسباب التوضي والاضطراب . ولكن الحياة البدوية للأعراب كان نزعا ونزاعا ، كانت رحلا دائمة ؛ وحروبا ينسى لاحقها سابقها ؛ وكانت فيما يبدو لي حياة ممزقة الأوصال من الناحية الزمانية أيضاً ، فكان من النادر حفظ التاريخ القديم للأمة أو القبيلة — ولا سيما إذا لاحظنا أن تكوين القبائل لم يكن منظما ثابتا وأن القبيلة الخالصة الأنساب نادرة أيضاً — وكان من النادر الهدوء والقرار ، وكانت الغزوات والمناقرات سبب التوضي التي سلبت العرب نزعتهم القومية كما سلبتهم النظر إلى ماضيهم البعيد ، وكيف يتاح لشعب كهذا أو لشعرائه أن تكون لهم حياة أدبية شاملة منطقية يتطلبها الشعر القصصي ؟

(٤) ولا أدري إذا كانت طبيعة الشعر العربي القديم وخواصه الفنية قد اشتركت في هذه المسألة بنصيبها ؟ فالقافية الواحدة والبحر الواحد ، والموسيقى الرتيبة المتشابهة ، حرمت الشعر من التنويع وسعة الصدر والمرونة اللازمة لنظم الملاحم ، ولكني حين أذكر قصور الشعر فأنما أذكر قصور الشعراء أنفسهم ، وإلا فما منع الشعر أن يخضع للتغير والتنويع في كل مناحيه غير تزمت الشعراء وتشبثهم بهذه الطوابع التي ألفوها منذ القدم ولم يحاولوا صدعها ليستطيع الشعر أن يكون ملاحم كبرى خالدة .

(٥) وهنا يخطر ببالنا هذه العزلة الأدبية : أكان لها تأثير في هذه المسألة ؟ وإنما نريد أن نقول : أإذا كان الزمان قد أتاح للعرب الاطلاع على ملاحم اليونان والرومان وغيرهما ، فهل كان ذلك يدعو إلى وجود الشعر القصصي عند الجاهليين ؟ أراني أرجح الناحية السلبية ، وأرى أن هذه الأسباب الداخلية للأعراب ، قد بلغت من القوة والرسوخ بحيث

لا يغلبها هذا الطارىء الخارجي الذي قد يظن أن يحملهم على التقليد ؛ فما كان أدبهم إلا قطعاً سريعة مقتضبة سريعة تشبه حياتهم المضطربة وعيشهم هذا المزاج من الشعر القصصي

قد تكون هذه الأسباب التي ذكرناها هي التي حالت دون ظهور القصص العربي القديم، وقد يكون شيء منها حقا ، وقد تكون هناك دواع أخرى سواها ، ولكن الشيء الذي يجب التسليم به هو خلو الجاهلية من الشعر القصصي على أية حال . وليس يضير العرب أنهم لم ينشئوا القصص مادامت حياتهم الأولى لم تسمح لهم به ، وليس ظهور الملاحم فريضة دينية أو أدبية يأثم المقصر في أدائها، وإنما الآثار الفنية تعد نتيجة منطقية لطبيعة البيئة وخواصها، فإذا كانت الحياة الجاهلية قد استلزمت هذا الشعر الغنائي ، واستلزمته بخواصه المعروفة فلا بأس على العرب من ذلك .

بقي أن نسأل هذين السؤالين : لماذا لم ينشىء العرب الشعر التمثيلي ؟ وما هي القيمة الفنية والاجتماعية لشعرهم الغنائي ؟

ولكن الموضوع طال فلنقف هنا على أن نعود إلى إتمام البحث في فرصة أخرى .

(روضة القاهرة) أحمد الشايب

مأثورات

ثلاث خصال تجتلب بهن المحبة : الأنصاف في المعاشرة ، والمواساة في الشدة ، والانطواء على المودة .

الجزع شر الحالتين : يباعد المطلوب ، ويورث الحسرة ، ويبقى على ظهر صاحبه عارا ونقما .

لا تصاحب إلا عالما تقيا ، ولا تخالط إلا فاضلا ذكيا ، ولا تشاور إلا أمينا وفيا .

العجلة من الهوى . ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل

« عامل الناس فلم يظلمهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت محبته » . ؟

محمد عبد الفتاح سعيد

(الواحات الداخلة) مدرس بمدرسة الراشدة

خير معلم

للاستاذ الفاضل أحمد أمين

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

ليس خير معلم من استطاع أن يضع فى أذهان من يعلمهم أكبر قدر ممكن من المعلومات ، فليس مقياس المعلم والمتعلم هو مقدار معلوماته ؛ فقد يعرف إنسان عشر معلومات ويعرف كيف يستخدمها استخداما صحيحاً ، وكيف يستغلها خير استغلال ، فيكون بذلك خيراً من إنسان يعرف مائة معلوم ولا يعرف كيف يستخدمها ولا كيف يستغلها .

ومثل ذلك مثل من عنده مكتبة فنية فيها آلاف الكتب القيمة من كل فرع من فروع العلم ثم هو لا يفتحها أو يفتحها ويطالعها فى غير دقة وفهم ، ومن عنده كتب قليلة جداً ولكنه يقرؤها ويتفهمها ويهضمها ويقلب ما فيها من الأفكار على أحسن الوجوه . فالثانى لاشك خير من الأول مراراً . وإذا سئلنا عما ينتظر النجاح لكليهما لم نتردد فى الحكم على أن ذا الكتب القليلة الذى يعرف كيف يقرأ سيفوق مراراً ذا الكتب الكثيرة الذى لم يتقن فن القراءة .

بل ولا خير معلم من استطاع أن يتعرف تلاميذه ومقدار كفاية كل تلميذ ومواضع قوته ومواضع ضعفه ، فذلك من غير شك يزيد قيمة المعلم ، ولكن لا يكفى وحده لجعله خير معلم فقد يقتصر المعلم على هذه المعرفة الشخصية ولا ينجح فى تطبيق معارفه فى الحياة الواقعية .

إنما خير معلم — فى نظرى — هو المعلم الذى يعين تلميذه على أن يعرف نفسه فأذا كان المعلم عشرون تلميذاً واستطاع أن يقوم ملكات كل تلميذ ويعرف مواضع نبوغه ومواضع ضعفه وفى أى النواحى العقلية هو جيد نابغ ، وفى أيها هو ضعيف خامل ، وكيف يستغل القوى النابغة ، وكيف يقوى الملكات الضعيفة ؛ ثم نقل كل ذلك لكل تلميذ وأشعره بنفسه ، وعرفه مناحى حياته العقلية والخلقية ، وأوضح له فى خريطة واضحة حدود نفسه ومواضع عظمته ومواضع نقصه ، وعلمه كيف يستخدم ملكاته وقواه فى كفاح الحياة ، وكيف يقابل شؤونها بقواه وملكاته . فذلك خير معلم حقاً .

وإذا وجد عدد وافر من هذا الطراز من المعلمين الذين لا يصبون كل التلاميذ فى قالب واحد رغم اختلاف طبيعتهم بل عرفوا كيف يصوغون كل تلميذ حسب خلقته ويعرفونه بنفسه فبشر الأمة بالرقى الحق .

خير معلم لى من يعلمنى من أنا فى نفسى ، ومن أنا فى العالم ، وما علاقة نفسى بمن حولى ، وأى موقف تصلح له نفسى لتؤدى خير ما يمكن أن يؤدى لخدمة العالم .

خير معلم لى من أحيا رغبتى فى استكشاف نفسى ، ثم اذا استكشفتها أحيا رغبتى فى العمل على وفق ما تبين لى منها .

وليس هذا المقياس الذى ذكرت هو مقياس المعلم وحده ؛ بل يصح أن يتخذ مقياسا لكثير من الأشياء .

فيمكنك أن تحكم على كثير من الأشياء لا بمقدار حسنها وجمالها ، ولكن بمقدار ما تبعث فيك من حياة وبمقدار ما تضيء لك جوانب نفسك

وعلى هذا فليس الكتاب القيم هو ما يثير إعجابك ، ويستحسن ذوقك من ناحية أسلوبه أو من ناحية معلوماته أو من ناحية استغراقك فيه واستلذاذك منه — وهذا كله خير ، ولكن خير من هذا كله أن تقوم الكتاب بمقدار ما بعث فيك من حياة ، وما أضاء لك من نواح كانت مظلمة ، وما بثه فيك من روح كان خامداً . وعلى الجملة ما عرفك بنفسك وعرفك بالعالم وشوقك لأن تلاقى العالم بما عرفته من نفسك . وربما كان هذا هو أكبر سر فى عظمة القرآن ، فهو لا يخاطب العقل بالحقائق المجردة وكفى ، إنما هو يوحي ويوحي دائماً ، ويبعث فى النفس الشوق الى معرفتها ومعرفة ما حولها ، ومعرفة خالقها ، وخالق ما حولها

كذلك ليس أعظم رجل بالنسبة لك هو الرجل الذى يستخرج منك الاعجاب بعظمته فحسب ، بل هو الذى تراه أو تقرؤه أو تسمعه فتشعر أنه كان لديك ينبوع مكبوت فتفجر أو كانت لك قوة كامنة مقيدة فانطلقت . أو كانت لك ملكات محبوسة مغلولة فتحررت وأخذت تعمل فى قوة من قوته وعظمة من عظمته . هو الذى يحيي شعورك ويلهب عاطفتك ؛ وتعجب من حالك قبل أن تراه وأن تسمعه ، وحالك بعد أن رأيته وسمعته .

فالمعلم العظيم ، والكتاب العظيم ، والرجل العظيم ، ليس هو الذى يلقى عليك ثقل معلوماته ، أو ثقل عظمته ، أو ثقل قدره ، وإنما هو الذى يلهمك ، ويوحي إليك ، ويستفز قواك ، ويحفز ملكاتك ، وعلى الجملة ليس هو الذى يضغط عليك بأية ناحية من نواحي عظمته ، ولكنه هو الذى يحررك ويفسح صدرك ويفك قيودك ، ويجعلك تتنفس فى راحة ، وتعمل فى أمل . هو نجم يتألق لا تشعر بثقله وحجمه ، ولكن تشعر بنوره وجماله ووحيه .

إن كانت عظمة الحكام والأمراء ورجال الضبط والربط ومن إليهم فى إشعار الناس بقوتهم وضغطهم وتنفيذ أمرهم وسطوتهم وقضاء كلمتهم ، فعظمة المعلم والكتاب والنابغين من رجال الفكر والخلق فى إشعار الناس بالتحرر من الأغلال ، وفى الإيحاء اليهم بمعانى السمو ، وفى إلهامهم معانى الرقى ، وبقدرتهم على تعريف الناس بقواهم وملكاتهم وتوجيههم كيف يستخدمون ذلك خير استخدام . وهم كالنجوم كذلك لا يستطيع أحد أن يحجب نورهم ، ولا أن يصد إلهامهم ، ولا أن يقف سيرهم .

فهل يأتى زمن يفهم فيه المعلم أنه موحى إليه برسالته ، ويعرف كيف يؤدى رسالته ؟

أحمد أمين

بين شاعر عظيم
ولص كريم

للكاتب القدير الاستاذ حسن صادق
دكتور فى الحقوق من جامعات فرنسا

للأدباء والشعراء فى مختلف الأمم والعصور حوادث أو نوادر لا يخلو بعضها من الطرافة والغرابة ؛ وهى فى مجموعها تلذ السمع وتسدر إعجاب النفس ، وتشتمل على الحكمة البالغة والفكاهة الشائعة التى تمسح ما فى دخيلة القارىء من حزن واكتئاب ولو إلى حين . ومن أجل هذه الاعتبارات نذكر اليوم حادثة واقعية لشاعر عظيم من شعراء فرنسا فى القرن السابع عشر تفتحت له أبواب عبقر فأخرج للناس فى كل العصور أروع الحكم على ألسنة الطير فذاعت وجرت مجرى الأمثال الخالدة ، وذهب الشاعر بها صيت وذكر لا ينال منه مر القرون .

* * *

انتصف الليل أو كاد ، فخرج شاعر فرنسا العظيم (جان دى لافونتين) من بيت فى شارع (سان جاك) بعد أن قضى مع أصدقائه عدة ساعات فى الحديث والسمر . وكان يحمل فى يده مصباحا ، إذ لم يكن بمدينة النور (باريس) فى ذلك العهد مصابيح فى الطرق . ولما بلغ جسر (نتردام) هب الهواء دفعة واحدة فأطفأ المصباح على حين غفلة من الشاعر ، ولم يكن معه فى تلك اللحظة ما يشعل به المصباح مرة أخرى . وانه لفى حيرته وسط الظلام ، إذ رأى أمامه رجلا يسير بخطى متمكنة ، فى يده مصباح وتحت عباءته سيف طويل ، فابتهج لافونتين لرؤية النور وتبع الرجل وهو يفكر فى دخيلته للمصادفة رفقها به وحدبها عليه . وكان الشاعر أسرع فى مشيته من الرجل ، فلما أدركه بعد وقت وجيز ، أطفأ الرجل مصباحه بغتة ، وانقض على لافونتين وطلب منه — وقد أثرب صوته الخشن نغمة الرقة والأدب — كيس نقوده أو يقتله . وكانت حجته فى طلب الكيس أنه بذل جهداً كبيراً فى اقتياده ، ومن حقه أن يتناول أجر هذا الجهد .

فقال له لافونتين : « سيدى ، كنت أفضل ألا أضن عليك بمالى وبحياتى ، ولكن بما أنك تركت لى حق الخيار ، فأنى أفضل أن أعطيك كيس نقودى على أن أسلم إليك حياتى »

ثم بحث فى جيوبه وقتاً طويلا فلم يجد بها من المال شيئاً فقال : « سيدى ، يسوءنى جد

الأساءة أن لا أجد معى ما تطلب . لقد نسيت الكيس فى البيت ، وفى وسعك أن تتثبت من صدق ما أقول ، إذن ليس فى مقدورى الساعة إلا أن أقدم إليك حياتى . ولكن ماذا تصنع بحياة شاعر مسكين ؟ »

اللص — ! أنت شاعر ؟!

لافونتين — أو على الأقل أحاول قرض الشعر . وقد عرفت الآن أنى نسيت فى البيت الذى غادرته منذ قليل كيس دراهمى ومفتاح بيتى الخاص ، فأنت ترانى مرغماً على قضاء الليلة أرعى النجوم . هذا تعبير يجرى به اللسان ولا يصح استعماله الليلة لأنى أرى السماء خالية من النجوم خلو جيبى من المال . ومن يدرى لعلى أجد خاناً مفتوحاً إلى الآن يقبل أن يضيفنى إلى الغد ؟!

اللص — سيدى ، أرى فيك رجلا مهذبا اعتاد مجالسة الكيسين ، وتملكه فضلا عن ذلك هدوء النفس الذى يميز الحكيم من سائر الناس . وإنى أقدم إليك الليلة بيتى المتواضع إذا لم تجد فى ذلك بأساً أو غضاضة ، وسيكون قبولك شرفاً لى أعتز به وأفخر .

لافونتين — أقبل شاكراً ممتناً .

أشعل اللص مصباحه وحدق فى وجه الشاعر ، كما حدق الشاعر فى وجهه ، فبدت على كليهما أمارات الارتياح والاطمئنان ، ثم سارا جنباً إلى جنب فى شارع (سان دنى) وهما يتحدثان :

اللص — سيدى ، إنى أمجد الشعراء ، وأنظم الشعر فى أوقات الفراغ . لقد بدأت دراسة الآداب اليونانية واللاتينية فى كلية نافار ، ولولم تصبنى عين لا أستحقها أرغمتنى على البحث عن مهنة أخرى ، لكنت اليوم أستاذاً فى أحد المعاهد . والمهنة التى أمارسها اليوم ليست من المهن السامية ، ولكنى على الأقل أشرف لحظات الفراغ التى تسمح لى بها بأن أجعلها وقفاً على قرض الشعر ؛ وأتصفح فى هدأة الليل وسكونه أروع كتب شعرائنا المجيدين أمثال كورنى وهاردى وغيرهما ، وأكتب من حين إلى آخر كلما سنحت لى الفرصة القصائد المختلفة ، وأنظم الأغانى الشعبية التى تهز أوتار النفس ، وتصادف أكبر نجاح فى الطرق أو المشارب الليلية ... أخشى أن أكون قد تماديت فى استغلال سعة صدرك أيها الزميل الكريم ولم أهيىء لك فرصة تمكنك أولا من الثناء علىّ قبل أن أحدثك عن نفسى ، ولكنى لا أستطيع الصمت فى حضرة شاعر كبير مثلك كما تبدو لى ، وإذا أذنت لى فى أن أعرض عليك بعض شعرى ..

لافونتين — إنى مصغ إليك .

فتطلق وجه اللص وطفق يلقى قصيدة من نظمه يسجل فيها انتصار الملك على أعدائه ، ويصحب الإلقاء بالإشارات والحركات ، ثم أعقب القصيدة بآخر أغنية وضعها ، يشيد فيها بمحاسن التبغ . فلما بلغ نهايتها قال له الشاعر :

— القصيدة قيمة رائعة ، ولكن الأغنية ببساطتها وتعبيراتها الشعبية أفضل عندى من القصيدة .

فأجابه اللص :

أعتقد أن حكمك عادل يا سيدى . إنى طيب القلب إلى درجة العفو عن الذين لا يعجبون بجميع ما أكتب ، وعن الذين يقسمون ثمرات عقلى إلى درجات . والآن دعنا من هذا . هل لك يا سيدى فى أن تسعدنى ، لا أقول بأن تخضع لحكمى الضعيف ، وإنما بأن تعرض على إعجابى بعض أبيات من نظمك ؟

فقال الشاعر :

— لا أستطيع يا سيدى أن أضن عليك بما تطلب ، بعد أن أحسنت معاملتى . سألقى عليك قطعة أكملتها هذا الصباح ، وحاولت أن أمزج فيها الرقة بالفكاهة كما أفعل دائماً

ثم أنشد قصيدة فى اللذة . ولما انتهى من إلقائها ، ظل اللص صامتاً بعض لحظات مبهوتاً من شدة الإعجاب ، ثم رفع قبعته وانحنى أمام الشاعر انحناءة احترام شديد وهو يحاول الكلام وهو يعجز عنه . ولما هدأ بعض ما به قال :

سيدى ، هذا هو الشعر ، الشعر الجدير بهذا الاسم ، الشعر الذى لا أذكر أنى سمعت مثله قبل اليوم ؛ ويخيل إلىّ أن هذه الأبيات خرجت من وجدانك فى غير جهد ولا عناء كما يغنى البلبل وتتفتح الورود . عرفت الآن أنى تلميذ صغير وأنك أستاذ كبير . وثق يا سيدى بأنى منذ الساعة خاضع لحكمك سائر على مشيئتك . والآن هل تسمح بأن تقول لى اسم الرجل العظيم الذى علمنى كيف يكون الشعر ؟

فأجابه الشاعر : « جان دى لافونتين . ويغلب على ظنى أن هذا الاسم لم يصل إلى سمعك ، لأن شعرى لم يطبع بعد . والآن أسألك بدورى ، ما اسم الرجل الشريف الذى أظهر عظيم تقديره لهبات إلهة القريض . ؟ »

فقال اللص : « لا أخفى عنك يا سيدى أنى أعرف باسم الكابتن كاسكاريه ، لا لأنى أتشرف بأن أكون ضابطاً فى جيش جلالة الملك ، ولكن لأن لى جيشاً خاصاً كما سترى بعد هنيهة .

* * *

بلغ الرجلان بيتاً كبيراً ودخلا ردهة فسيحة منخفضة السقف ضئيلة النور . وكان فيها بعض رجال يدخنون ويشربون النبيذ ويلعبون الورق . فلما رأوا الكابتن كاسكاريه وقفوا إجلالا فتقدم إليهم رفيقه قائلا : « هذا السيد صديق فأكرموا مثواه » . ثم جلس إلى منضدة صغيرة ودعا الشاعر إلى الجلوس قبالته ، وأحضرت إليهما خادم بدينة زجاجة من النبيذ وقدحين من الجلد .

وبعد قليل قال الكابتن لرجاله : تكلموا أمام هذا الصديق ولا تخشوا بأساً ثم دعاهم بأسمائهم : بوندرى ، لابريش ، لابولين ، لانجفين ، روستو ، برندستوك ، فجاءوا إليه وحداناً فى خشوع يطلعونه على نتيجة أعمالهم فى ذلك المساء ويضعون بين يديه أنواعاً مختلفة من الأقراط والعقود والأساور الثمينة : وكثيراً من قطع النقود الذهبية والفضية ، بعضها خفيف الوزن إلى درجة كبيرة . ولكن الكابتن لم يكلف نفسه مشقة اختبارها ، لأنه يعلم أن عماله تسلموها دون أن يحدقوا النظر فيها . ثم قدم إليه آخرون معاطف وقبعات وأقمشة وأدوات طبخ ، وأشياء مختلفة ذات منفعة أو تصلح للزينة

وضع الكابتن جميع هذه الأشياء فى ركن من الردهة وقال لرجاله « نعم ما فعلتم الليلة ، ستحصل القسمة بينكم غداً ، فعودوا الآن إلى الشراب والسمر »

أخذ هذا المنظر من نفس لافونتين مأخذاً شديداً فقال لمضيفه : « يستدر غاية إعجابى أنك عرفت كيف تسوس الفوضى وتنظمها إلى هذا الحد البديع بين أناس لا أخطىء إذا فرضت وظننت أنهم خارجون على القانون ، وإنك فرضت عليهم نظاماً وطاعة يندر أن يجدهما الإنسان فى الجماعات النظامية » .

فأجابه كاسكاريه : « ثق يا سيدى بأنى لم ألق فى سبيل ذلك عناء ، لأنى تعلمت فى صغرى وعرفت بينهم بأنى أنظم الشعر ، وبأن لى عقلا معدوم النظير ، ومن أجل ذلك يطيعون أمرى مغتبطين . ومع ذلك فأن الكثير منهم أمهر منى فى العمل وأبرع ، ولا أستطيع أن أعدد الخطط القيمة الجمة التى يبتكرونها فى الحصول على جميع هذه الأشياء التى تعوزنا وتوفر لنا أسباب العيش الرغيد » ؛ وبينما كان يسرد ميل كل فرد من رفاقه ، خدعت فى عين لافونتين سنة من النوم ، ولم يوقظه إلا صوت وقع أقدام على السلم الخشبى . فلما فتح عينيه رأى فرقة من النساء نزلت من الطبقة الثانية واختلطت بأعوان الكابتن كاسكاريه ، اثنتان أو ثلاث منهن ما زال الجمال يستطيب صحبتهن ، والأخريات كن يخفين قبحهن بأصباغ تنم رائحة لا تستطيبها الأنف .

ولما رآه كاسكاريه قد مسح عن عينيه الكرى ، قال له : « إن ما ترى من النساء هن

صديقات هؤلاء الرفاق ، يهون عليهم العناء الذى يصادفونه فى بعض الأحايين ، فلوبن نقية نيرها الوفاء والاخلاص ، وهؤلاء الرفاق لا يمنعونهن عن إرضاء بعض الأجانب الذين يشتهون سحرهن فى مقابل مبالغ من المال . ولهن علينا فوق ذلك فضل آخر : إنهن يعنين بنظافة البيت وحفظ الملابس وتغيير شكل الثياب التى نحصل عليها ، فلا يستطيع أصحابها أن يعرفوها إذا وقع نظرهم عليها . . . » .

وقبل أن يختم قوله ، سأله لافونتين : « من هذا الرجل الذى اجتمعت فى هيئته البشاعة المخوفة والطيبة الجلية ؟ هل هو أيضاً من رفاقك ؟ »

فأجاب كاسكاريه : « إنه مساعد جلاد باريس ، وهو يتفضل علينا بالزيارة كثيراً ويشرب ما تقدمه إليه من الخمر . إن مهنتنا تحتم علينا أن نعقد صلات الود مع الذين ينفذون أحكام القضاء ، لأنهم يستطيعون بحيلهم أن ينقذوا المحكوم عليه بالموت شنقاً ، وفى وسعهم أن يضعوا شريحة من الدهن على كتف الرجل المحكوم عليه بوصمه بعلامة الاجرام ، قبل إنفاذ هذا الحكم . هأنذا قد شرحت لك ياسيدى حكومتى الصغيرة . إنى أدير دفتها بعدل يتضاءل أمامه عدل قضاة باريس وحكام الأقاليم . إننا نملك جميع الأشياء التى نفتقر إليها دون أن نشترى شيئاً منها ، ونحن فى باريس كذئاب فى غابة ، وكثيراً ما أستخلص من مهنتى شيئاً من الفضيلة . واعلم يا سيدى أن الأخطار ترنو إلينا فى كثير من الأوقات ، ولكن الخطر الأكبر ، هو خطر الموت الذى يشرف هذه المهنة كما يشرف مهنة الملك . وفضلا عن ذلك فإن مما يثلج فؤادى أنى أعتنق المذاهب الحرة ، وقد اقتبسنا فى الزمن السالف بعض آراء (جاساندى) . وهذه الفلسفة تلائم حالتى ، وحالتى تبررها هذه الفلسفة . ألا ترى ذلك يا سيدى ؟ »

فأقر لافونتين حديث مضيفه بإمالة من رأسه ، وأعجب فى دخيلته بلباقة هذا الرجل وحزمه وبعد نظره ، ثم نظر إلى النساء فى ابتسامة عذبة ، ولمح كاسكاريه هذه الابتسامة فقال له : « إذا صادفت إحداهن من نفسك هوى . . . ثق يا سيدى بأننا أرفع من أن تستبد بنا الغيرة المبتذلة » . فأرتج على لافونتين ثم قال متمتما : « كيف السبيل إلى الشكر ؟ »

وسمعه كاسكاريه فقال : « توجد طريقة سهلة فيها الغناء كله ، أن تكون أستاذى فى الشعر ، وتتفضل بتنقيح قصائدى »

* * *

قضى لافونتين فى بيت اللصوص ثلاثة أيام يأكل ويشرب ويمرح وينام كثيراً ، ثم ينقح أشعار كاسكاريه . وفى اليوم الرابع بعد الظهر ، كان بمفرده فى الردهة فدخل عليه شاب أنيق

الملبس وسيم الطلعة وقال له فى أدب جم : « الكابتن كاسكاريه من غيرشك؟ » فلم يحر لافونتين جوابا ، لا ليخدع السائل عن نفسه ، ولكن لأنه كان فى حالة من التراخى يصعب عليه معها أن يتكلم أو يتحرك . ومن أجل ذلك حرك رأسه حركة طفيفة ، استخلص منها الزائر أنه فى حضرة الكابتن ، وشرع يقص عليه قصة غرامه ورغبته الشديدة فى الانتقام من مزاحم له وهو يريد أن يضرب هذا المزاحم بالعصى فى يوم وساعة عينهما . وختم حديثه بقوله : « ومع ذلك سأكون قريباً من المكان الذى سيتم فيه الانتقام ، وسأدلك أو أدل أحد رفاقك على مزاحمى ، وسأدفع الثمن الذى يفرض علىّ » .

سمح هذا القول بعض خمول لافونتين ، فقال فى هدوء وبساطة : « إن ما تطلبه يا سيدى عمل فيه إثم كبير . وثق بأنى لن أفعل شيئاً » .

تجهم وجه الشاب وحدثته نفسه بلطم هذا الرجل ، ولكنه تذكر أنه فى حضرة شخص مخوف ، لسيفه شهرة كبيرة ، فكظم غيظه وتمالك نفسه ، وعاد إلى الرجاء والضراعة ، وعرض ثمناً لهذه الخدمة خمسين ديناراً

فقال له لافونتين : « أيها الشاب ، إنى أقدر حزنك على فقد صاحبتك وامتهزامك أمام منافسك ، ولكنك لو عرضت علىّ كنزاً ثميناً لما أجبتك إلى ما تطلب . إنى أنفر بطبعى من العنف ، وعلى الأخص فى مسائل الحب » فعرض الشاب ستين دينارا ، ولكن لافونتين لم ينزل عن إصراره وقال : « عرضك خال من الشجاعة وكرم النفس وأرى فيك نزقا ورعونة . لقد أحببت فيما مضى فتاة لم تبادلنى هذه العاطفة ، فأغرقت حزنى فى الكأس والنوم أو فى حب فتاة أخرى . فلدى أيها الشاب ، أن الانسان لا يمكنه أن يتصرف فى القلوب بابنى ، ومع أنى لم أتشرف بمعرفة صاحبتك ، فأنى واثق بأن هذه الفتاة الساحرة خضعت لعاطفة لا سبيل إلى مقاومتها ، ومن أجل هذا فضلت عليك عشيقا آخر . وإذا كانت هذه الفتاة تحب منافسك حقاً ، فأن الواجب يقضى عليك بامتداح صدقها وصراحتها . وإذا حكمت أنت أنها فضلته عليك إرضاء لزهوها أو تحقيقاً لمطمعها ، فأن هذا يدلك على أنها ليست جديرة بك . والخلاصة أن أسباب العزاء كثيرة إذا بحثنا عنها فى جد وعزم . وفضلا عن ذلك فأنك رائع البسمات خلاب الشباب رشيق القوام أنيق الثياب ، وأرى أنك على شىء من الذكاء وتستطيع بهذه الثروة العظيمة أن تستعيض عن هذه الفتاة التى صدقت عنك بغيرها . وجميع الفتيات الجميلات يابنى تسيب لنا اللذة نفسها تقريباً ، اللذة القوية العنيفة القصيرة الأجل التى تزينها مخيلتنا وتقسمها إلى أنواع ، وتطيل أجلها بالانتظار والذكرى .. اذهب يابنى ولا تقل كلمة .. دعنى الآن فلدى اليوم كثير من الأعمال » .

ثم دفع الشاب إلى الباب فى رفق ولين وحنان ، فخرج دهشا يكاد لا يصدق أنه رأى فى هـذا اللص المشهور كثيرا من اللطف وصفاء السريرة ، وعجب أشد العجب إذ شعر فجأة بأنه شفى من حب الفتاة التى أعرضت عنه .

وما أن عاد لافونتين إلى مقعده : حتى رأى أمامه الكابتن كاسكاريه وعلى وجهه أمارات الغضب ، ثم قال له فى لهجة فاترة : « كنت فى أعلى السلم وسمعت الحديث الذى دار بينك وبين هذا الشاب ، كنت أعتقد أنك صديقى ، ولكنك حرمتنى من ستين دينارا » .

فأجابه لافونتين : « سآتيك ياسيدى بهـذا القدر من المال » . ثم خرج بعد أن حيا مضيفه تحية إكبار واحترام .

أسرع لافونتين إلى بيته ، وأخذ من خزائنه ـ وكانت عامرة من حسن حظه ـ ستين دينارا ، ثم خرج إلى الطريق وأخـذ سمته إلى بيت كاسكاريه . ولكنه قابل أثناء سيره صديقا له فدعاه إلى تناول الطعام معه ثم إلى مصاحبته إلى ملعب التمثيل بعد ذلك .

شغلته الحياة فى الأيام التالية عن كاسكاريه . وبعد ثلاثة أشهر ذهب إلى منزل اللص وقال له : « إليك الدنانير التى وعدتك بها » فقال كاسكاريه : « ما كنت أتوقع مجيئك بعد غيبتك الطويلة » ثم رفض أن يضع هذا المال فى جيبه ، واستأذن لافونتين فى أن يقيم به حفلة شائقة تكريما للشاعر العظيم .

ومضى لافونتين الليل كله فى مرح وحبور . ولما طلع النهار غادر بيت اللصوص بعد أن تبادل وإياهم العناق والتقبيل ، ووعدهم بزيارتهم كلما سنحت له الفرصة .

ويقال إنه بر بوعده وأصبح من عادته أن يتردد على بيت اللصوص من حين إلى آخر ويجد فى ذلك سرورا كبيرا ./.

حسن صادق

خواطر فى كلمات

* أبواب السعادة ميسورة ، غير أن التوصل إليها يستدعى الجرأة والنشاط .
* الليل نهار العاقل وراحة الجاهل .
* المغرور كالجاهل كلما زدته نصحاً ازداد نفورا .
* للعامل المجد حياتان : حياة عامة كـكل الناس ، وحياة خاصة يسجلها له التاريخ .

محمد محمد عامر